

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

فلطالما استوقفَتِ الإنسانَ تلكَ الفكرةُ العَصِيَّةُ على الفَهمِ، لَتَعَبَتَ بالعقلِ فَنَطَوَّحَ بِهِ يَمَنَةً وَيَسْرَةً، وَهِيَ تَحُومُ حَوْلَ سُلْطَةِ الْإِنْسَانِ وَإِرَادَتِهِ وَحَقِيقَةِ حُرِّيَّتِهِ، وَاخْتِيَارِهِ فِي إِيقَاعِ هَذَا الْفِعْلِ دُونَ ذَلِكَ، وَبَيْنَ قَضَاءِ اللَّهِ وَسُلْطَانِهِ، وَالَّذِي يَنْفَرِدُ بِسَبْحَانِهِ فِي شُؤْنِ الْعِبَادِ، وَأَفْعَالِهِمْ، وَجَبَّرَهُمْ فِي إِيقَاعِ هَذَا الَّذِي يَصْدُرُ عَنْهُمْ، وَيَبْضُحُ لِلْمُرَاقِبِ تَارِيخِيًّا أَنَّ هَذَا التَّدَاخُلَ أَوْرَثَ ازْدَوَاجِيَّةً حَيَّرَتْ مِنْ أَلْعُقُولِ الْكَثِيرَةِ، حَتَّى طَالَتِ الْمُفَكِّرِينَ، وَعَلَى وَحْيِ هَذَا التَّدَاخُلِ اخْتَلَفَتْ النَّاسُ إِلَى فِرَقٍ وَمَذَاهِبٍ.

وَلَكِنَّ الْوَقَائِعَ الْحَيَاتِيَّةَ تُرِينَا أَنَّ قُوَى الْإِنْسَانِ فَاعِلَةٌ، وَلَهَا فُذْرَةٌ، كَمَا تُرِينَا قُوَى لغيرِ الْإِنْسَانِ فَاعِلَةٌ هِيَ الْآخَرَى، يُسَخَّرُهَا الْإِنْسَانُ لِإِيقَاعِ مَا يُرِيدُ - هُوَ - إِيقَاعَهُ، فَالرِّصَاصَةُ تَقْتُلُ، وَالسُّمُّ يَقْتُلُ، وَالْمَيْكْرُوبُ وَالسَّقَّاحُ، كَمَا نَرَى الْمُلُوكَ وَالْأَمْرَاءَ وَالرُّؤَسَاءَ يَحْكُمُونَ وَيَرْفَعُونَ، وَيُخَفِّضُونَ، وَيُعِزُّونَ وَيُذِلُّونَ، وَيَرْزُقُونَ، وَيَمْتَنَعُونَ .

عَلَى أَنَّ سُلْطَانَ اللَّهِ وَجَبَّرَهُ الْإِنْسَانَ، وَقَهَّرَهُ عَلَى الْحَرَكَةِ بِحَسَبِ الْإِيقَاعِ الَّذِي قَضَاهُ اللَّهُ دُونَ غَيْرِهِ، وَإِنْفَازِ هَذَا الْفِعْلِ دُونَ الْآخَرِ هُوَ الْوَاقِعُ، فَهَذَا السُّلْطَانُ مُسْتَقَرٌّ فِي الْفِكْرِ مُسَلِّمٌ بِهِ، وَالْقُرْآنُ يَتَّفِقُ مَعَ مَا سَلَّمْنَا، وَتَجَزُّمُ الْآيَاتُ فِي كِتَابِنَا الْحَكِيمِ عَلَى حَقِيقَةِ إِسْنَادِ الْفِعْلِ مُطْلَقًا إِلَى اللَّهِ.

وَأَيُّ لَأَعْتَرَفُ حَقِيقَةً بِأَنِّي لَسْتُ بِدَعَاً مِنْ هَذِهِ الْعُقُولِ الْبَسِيطَةِ الَّتِي تَأْبَى التَّحَاوُرَ، وَتَرْكُنُ إِلَى التَّسْلِيمِ بِأَنَّ كُلَّ فِعْلٍ يَقَعُ فِي الْكُونِ صَادِرًا مِنَ الْإِنْسَانِ، وَغَيْرِ الْإِنْسَانِ، وَاقِعٌ وَلَا بُدَّ بِإِذْنِ اللَّهِ، قَدْرَهُ وَقَضَاهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَرَضِيَهُ ثُمَّ أَوْقَعَهُ، هُوَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحَدَّهُ.

• وفي القرآن نرى هذا الأمرَ موصوفاً حقيقةً، فإنَّ آياتٍ عديدةً راحتْ تستعرضُ سلطانَ اللهِ ، فهو الذي خلقَ الإنسانَ بيديهِ، ونفَخَ فيه مِنْ رُوحِهِ ، ثمَّ علَّمَهُ الأَسْمَاءَ ، ثم ولَّاهُ الأَرْضَ خَليفةً على كلِّ مخلوقاته وسَخَّرَ لَهُ الطَّبيعَةَ ودَلَّلَ لَهُ صِعبَها، وسَخَّرَ لَهُ قِوانينَ الأَرْضِ والسَّماءِ، وَيَسَّرَ لَهُ سُبُلَ تَحْصِيلِ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، وَكَلَّ شُؤنِهِ، وَمِنْ هُنَا يَتَوَضَّحُ لِلْعَقْلِ أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى شَيْءٍ، وَإِذِنْ فَالْعَمَلُ وَالنِّيَّةُ، وَالْحَرَكَةُ وَالسَّكُونُ وَالضَّلَالُ وَالهُدَى وَالرِّزْقُ، وَالصَّلَاةُ وَالخَرَابُ ، وَكَذَا ظَوَاهِرُ الْكَوْنِ ، وَجَمِيعُ مَا يَتَّصِلُ بِالْإِنْسَانِ، يَنْفَرِدُ بِهَا اللهُ، وَلَا سُلْطَةَ وَلَا إِرَادَةَ لِغَيْرِ اللهِ.

والقرآن يشهد: **قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١)**
﴿ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٢) ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ (٣)

وقد نلحظُ أنَّ أعظَمَ الأجزاءِ في الكونِ تتسلَّمُ الإيعازَ منَ اللهُ في تحركِها وسكونِها:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسَّامَاءِ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ (٤)
 كما وليسَ للإنسانِ قُدْرَةٌ على إنجابِ الذرِّيَّةِ إِذْ يَتَزَوَّجُ، وَإِنْ كَانَ صَاحِبًا، وَإِذَا أَنْجَبَ فَلَيْسَ لَهُ قُدْرَةٌ على اخْتِيَارِ جِنْسِ الْمَوْلُودِ الَّذِي تَسْتَهِيهِ نَفْسُهُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْ شَاءَ لِمن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُرْجِيهِمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٥)

(١) سورة الصافات الآية 96.

(٢) سورة الرعد الآية 16.

(٣) سورة النحل الآية 14.

(٤) سورة هود الآية 44.

(٥) سورة الشورى 49-50.

بل نكتشف أن إرادة الله سلبت حتى فطرة الهادي البشير صلى الله عليه وسلم على هداية من يحبُّ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١)

ويتفاهم العجز عند الإنسان حتى يبلغ حدًّا يصعبُ على الفكر تقبُّله، وهو أن الإنسان وإن اغواه الشيطان وتهور فأقدم على البطش بإنسان، فإن أطلق عليه سهمًا أو رصاصة يقصد قتله، فلن يُصيبه بإمكانياته الذاتية ويمحض قدرته، بل وإن أصابته فلا تقتله، وقد أعلنها الله صراحة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (٢)

ومن هنا كان يلزم منا:

١. إعمال الفكر على فكّ هذا الاشتباك يقصد الوُفوف على حقيقة فصل السلطات، وتحديد القوة الحقيقية لمصدر الفعل بين إرادة الله تعالى وقضائه وإنفاذ أمره على الكون، وبين حرية الإنسان وقدرته على الاختيار والتنفيذ، وليغدو مسؤولاً أمام الباري عن مكتسبيه في الآخرة عند الوقوف في ساحة العرض.
٢. وكذا ليستفيق فكر الأمة الإسلامية ويستعيد العقل فاعليته في الحجاج للدفاع عن عقيدتنا غداة عصر قد يُشبه ما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله (إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة) (٣).

أهمية الموضوع

لذلك فإن المفاصل الاعظم اهمية هنا هي:

١. الجبر والاختيار
٢. القضاء والقدر

(١) سورة القصص الآية 56.

(٢) سورة الأنفال الآية 17.

(٣) رواه البخاري 6498 ج8 ص 104 ، ومسلم 2547.

وهذا المبحثان لعظم أهميتهما قد اثارت استنفاراً وتحيراً في القلوب، بل واستوقفت الفكر طويلاً وكثرت آراء المجتهدين وتعصب فريق، وتواضع آخرون، وسناتي على اثارة الكلام فيها لاحقاً.

٣. أجل الإنسان، وحقيقته تحدده منذ الأزل، وهل حقاً بالإمكان التقديم أو التأخير؟ وهل حقاً يقطع القتل الأجل على الإنسان، ولولاه لامتد عمره، وكذا العمل الصالح، هل حقاً يطيل في العمر؟.

٤. ولعل المبحث الأعظم أهمية هو دراسة صفات الخالق تبارك وتعالى لما لها من عظيم أثر في فعاليات العباد، من صفة القدم إلى صفة البقاء إلى المبحث الأعظم الذي يعد أساس العلم الذي نتشرف بدراسته وهو كلام الباري عز وجل، مع إيماننا أننا لا نزداد في دراسته إلا جهلاً بصفاته تعالى.

ويحضرنا قول الأمير المكزون (583 - 638هـ)^(٩)

يَقْنَى الكَلَامُ وَلَا يُحِيطُ بِوَصْفِهِ أُحِيطُ مَنْ يَقْنَى بِمَا لَا يَنْفَدُ

اختيار هذه الحقبة الزمنية

من المفيد أن نؤشر هنا أن الأوضاع الدينية في الأمة الإسلامية في تلك الحقبة كانت بالغة السوء، فقد شهد القرن الثاني عشر الهجري غربة عظيمة للتوحيد والعلم بالدين وأحكامه، ورواج كبيراً للشرك والجهل والخرافات والبدع ، لتعرض لنا صورةً للأوضاع الدينية الفاسدة والأحوال الاجتماعية المنحرفة التي كانت سائدة في معظم البلاد الإسلامية لاسيما الجزيرة العربية بعامة وفي بلاد الشام والشمال الأفريقي إبان القرن الثاني عشر الهجري . مما يؤكد تدني المستوى الفكري، كما يؤشر شحة المفكرين وافتقارهم الفاعلية في هداية العوام، وهذا كله راجع الى تدهور الحالة السياسية على كل حال، فلقد كان معظم العالم الإسلامي في القرن

(٩) الحسن بن المكزون من جبل سنجار في العراق، أمير، من أعلام القرن السابع الهجري، وهو من كبار علماء العلويين وفلاسفتهم وشعرانهم ويعودونه في سورية من كبار رجالهم، لا يخفى على معاصريه تمسكه بعقيدته الإسلامية العلوية الاثني عشرية. وله ديوان شعر صوفي من كتاب "تاريخ العلويين وأنسابهم"، تأليف المحامي محمد خوند، ص 239 ط 1، 2004، دار المحجة البيضاء.

الثاني عشر الهجري محكوما بثلاث دول هي الدولة العثمانية ، دولة بلاد فارس، الدولة المغولية في الهند (١٠).

وغالبا البلاد الإسلامية تحكمتها الدولة العثمانية التي بدأت على يد عثمان بن أرطغرل سنة 687هـ، ووصلت إلى ذروة مجدها السياسي في القرن العاشر الهجري وبسطت سلطتها على كثير من الأقطار الإسلامية، ودخلت جيوشها العديد من البلاد الأوروبية (١١)، حتى إذا بلغت القرن الثاني عشر، فقد تدهورت أحوالها واضطربت أمورها.

فقد كان سلاطينها - في ذلك الوقت - من الضعف بمكان بحيث لم يكن لهم من أمر الدولة شيء، بل كان الأمر استبداديا بيد وزرائهم ورؤساء الجيش الإنكشاري (١٢) الذين لا يعرفون من أمور السياسة شيئا، وفوق ذلك فقد كان سلاطينها في ذلك الوقت مع زعماء الدولة الآخرين قد اشتغلوا بالملذات والشهوات، وأهملوا شؤون الدولة، واهتم الكل بأموره الخاصة، وكان بعض الوزراء من عناصر أجنبية لا تهمهم مصلحة الدولة وعزها بقدر مصلحة أنفسهم أما الولاة على أقاليم الدولة فقد ساءت إدارتهم، فهمم الأكبر جمع الأموال من ولاياتهم على حساب شعوبها، ليكون سقوطها سنة 1341هـ (١٣)

ولقد كان مطلع القرن الثاني عشر إيذانا بنهوض فكري وولادة لعلماء مجتهدين ليقودوا نهضة تصحيحية وكما سنعرض في ثنايا الرسالة.

من هنا وفي عصرنا الحالي كان لا بُدَّ من مواصلة العمل، لتحرير العقول الإسلامية ومن ثمَّ إنعاشها بتقوى الله، وإخلاص العمل له، كيما نحظى بتوفيق الله الهادي إلى سواء السبيل. وإنا لنسأله التوفيقَ في بحثنا والسدادَ والأجرَ فحسبُ يوم لقائه، راضياً عنا غير غضبان.

(١٠) المجددون في الإسلام / من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري عبد المتعال الصعيدي 41-418

(١١) الشرق الإسلامي في العصر الحديث / مقدمة الكتاب تأليف حسين مؤنس ص د

(١٢) الإنكشارية: هم عماد الجيش العثماني، ويشكلون قوة ضخمة في الدولة التاريخ الإسلامي، العهد العثماني، محمود شاكر، ص 112.

(١٣) حاضر العالم الإسلامي لوثرروب ستيوارد ترجمة عجاج نويهض تعليق شكيب أرسلان ج/ص 259

المعوقات أمام الباحثين والتي ذللتها الحضارة

وبما أننا قد اعتدنا عرضَ المعوقاتِ التي تُعترضُ سبيلَ الباحثينَ في مثل هذه المناسبةِ، مِنْ جَمْعِ المَصادرِ والمعاجمِ إلى غيرِها.

ولكنْ يوصفنا مُسلمينَ ويتوجَّبُ أنْ لا نقولَ إلا الحقَّ ونصدِّقَ الناسَ فيما نُحدِّثُ فأثبتُ هنا حقيقةً يشهدُ بِصدقِها الكثيرونَ ومفادُها: أنْ مَظاهرَ الحضارةِ وتطورَ وسائلِ الاتِّصالِ (الشبكاتِ العنكبوتيةِ) قدَّ أسهمتْ إلى حدِّ بعيدٍ في تيسيرِ العَمَلِ على الباحثينَ والدارسينَ، واختزلتْ القِسْطَ الأعظمَ مِنَ الجُهودِ والأُمُوالِ.

إلا أننا نسجلُ عقبتينِ الأولى هي شحة المراجعِ المؤلفةِ في هذه الحقبةِ، من قبلِ المفكرينِ الإسلاميينِ من غيرِ العربِ، والثانية مطبوعاتٍ مهمةٍ في الفكرِ الكلامي لم تزل في طباعتها القديمة ولم تصلها أيدي المجتهدين لأعادة الطباعة العصرية.

وآخرُ دَعوانا أنْ الحمدُ لله وأصلِّي وأسلِّمُ على خيرِ خلقِ الله محمدٍ صلى الله عليه وسلّم .